بلوتوث

محمد سامي البوهي

بلوتوث / قصص

محمد سامي البوهي

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

OKTOB NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

عبد الرحمن حافظ

تدقيق لغوي :

سارة سحان

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٨٥٣

I.S.B.N;٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٧٥- ٩

بلوتوث

محمد سامي البوهي

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى أمي التي علمتني عدَّ أصابعي دون خطأ.



"سيعلم الذين سبقوني إلى الموت أنني لم أكتب حرفًا

واحدًا من أجلهم".

الكاتب



موت في متاهاتي

الأولاد.. المدارس.. العمل.. السوق.. البواب.. التليفون.. وزوجي..

باب أمي هو الرحمة الوحيدة التي تتلقفني من عبث تلك المتاهات.. لا أحد يرحمني، أو يحن على صدري بحضن دافئ يلهو مع قلبي، ويدغدغ وجنتيه، ويرحل عني، يمازحني لحين اللقاء، الكل يريدني أن ألتصق به، أن أقطع من لحمي، وأحشو فمه من جسدي، حتى تحول إلى كتلة حديد صدئة، أراها كلما نظرت لنفسي في مرآتي اللعينة.

لا تتألم.. لا تشكو.. لا تكل.. لا تمل..

لكنها يومًا ما ستنفجر، وتتحطم، وتتبعثر، وتتحول إلى برادة من الألم، تتوارى بأنوف المعذبين، ويبقى جسدي يترسب بقاع الحلم، ينتظر من ينتشله ويعيده للحياة.

غفل عني الحظ يومًا ما، فأشاح بوجهه للاتجاه الآخر، وتركني أتنفس؛ وافق زوجي أخيرًا أن ننتقل إلى الشقة المواجهة لشقة أمي بمدينة نصر، أخبرني بذلك في تلك اللحظة التي شعرت فيها أنني أدوس الأرض من تحتي، فتسمرت أمامه وهو يقبلني، أغمضت عيني وأسندت راحتي على كتفيه.

بالأمس كدت أن أقبل يديه، وقدميه، وأغسلهما بدموعي من أجل أن يوافق، واليوم جاء يزف إلي بشرى الرحمة.. ياااه.. أي تجبُّر هذا الذي يحملني عاليًا، ثم يطرحني أرضًا، ويأتي اليوم يقبلني كدمية مستباحة لطفل يفعل بها ما يشاء.

ظلت متاهاتي تحاصرني، فانتقلت معي إلى مسكني الجديد؛ الأولاد ومشكلاتهم، مدارسهم، عملي ومديري المريض بهوس الروتين، السوق الذي يبتلع راتبي كل شهر، البواب الجشع الذي يحتفي بي كل يوم صعودًا ونزولًا بفواتير الكهرباء، والماء، والنظافة، والمصعد، والإيجار... ووووو!

المطبخ.. آآآه من هذا التنين.. الذي ينتظرني ليفتح فمه لنصف عمري الباقي، لكن من بين تلك المتاهات ينخرني الصمت.

بالأمس صمتٌ..

اليوم صمتٌ..

وغدًا صمتٌ..

باب أمي.. متى سيُفتح؟

متى سأسمع قفله الموصد يطقطق في أذني، ليشق أمامي عوالم النجاة، صمتٌ يا أماه خيم على بابك وقفلك، وبقي كل شيء حولي يصرخ بالضجة العارمة، فيصفع رأسي بالفراغ.. كنت أنت جرعاتي الهنيئة من هذا الجفاف، وملاذي الذي يدثرني بالحرير.

متى ستفتحين بابك لي من جديد؟

خمس سنوات يا أم... خمس سنوات لم أر وجهك المتفتح من خلف الجدار، وأنت تلملمين جدائل شعرك، تحت غطاء رأسك الملائكي عندما تسمعين وقع أقدامي، فتفتحين لي بابك بلا طرقات مني تطلبك، بسمتك التي كانت تشق لي كل جدر الدنيا، فأرى من خلفها كل الدنيا بحلتها المزركشة.

متى ستفتحين بابك؟

أتسمعين؟ ككل يوم..

صوت شجار الأولاد يعلو.. ويعلو.. من الغرفة الداخلية.. والبواب يمط أحباله الصوتية بصياحه المزعج، جرس التليفون يطن بكل ركن من حولي.. الطعام يغلي ويغلي.

زوجي.. زوجي..

تصرخ..

تقفز..

تتعثر بكل شيء.. تُطرح أرضًا.. تتماسك.. تفتح باب شقتها.. وتلقي بوجهها على باب شقة أمها، تدق الباب بقوة

تدق..

تدق..

افتحي بابك يا أماه.. افتحي بابك يا أمي..

تتشبث بالباب.. تغرس أظافرها بأخشابه..

تبكي..

تكوّرُ جسدها في هدوء مستلقية أمامه..

نقوش باقية

سار أمام خطواته يشق عُقَد الشوارع المتشابكة، يستعير من قوانين الحياة الرابضة فوق مصاطب الأزقة القديمة، ينفض عنها الغبار المستلقي على ألحان الأغاني المنقرضة، ففشل أن يدفن صياح أبيه المتدحرج خلفه على سُلم المترل المتهالك، فملأ عليه كل فراغاته، حتى جيوبه الخاوية إلا من بعض العملات المعدنية، كانت آخر ما تبقى معه من حصاد عمله الأخير، يلتصق بصره بأرضية الشارع السوداء، فيرى كل من حوله مصبوغًا بتلك الصبغة؛ رؤوس البشر، أعينهم، وجوههم.. قلوبهم، البيوت القصيرة، المحال الضيقة، حتى السماء من فوقه، كانت ظلامًا في ظلام، ما زال يراه.. كما يراه من حوله كل يوم يقف في محل أبيه، تتدلى من فوقه أحبال المسابح الفسفورية، والفوانيس الملونة، والتماثيل الرخامية، والأطباق النحاسية، لكن تلك الأشياء لم تعد تُدر عليه فائدة يأملها،

مهما قدم لها من قرابين.. فهي لا تملأ جيبه إلا بتلك العملات المعدنية اللعينة..

كان السفر هو الحل الوحيد الذي يقف أمام أفكاره، فحاول أبوه مرارًا وتكرارًا أن يقتله داخله؛ لكنه فشل، فتوسل إليه كثيرًا بهرمه، بضعفه، وبأنه السند الوحيد بتلك الدنيا، لكن تمرده أبى أن يخفض له جناح الرحمة؛ فصب عليه حجارة أسقطها من قلبه، صفع خلفه الباب طريدًا حيث لا هدف يؤويه، خاض ثورته تحت أضواء اللهب المتسللة من الورش الصغيرة، وأبخرة القصدير المنصهر تقتل أنفاسه، فتوقف أمام محل أبيه الموصد، حدق فيه طويلًا، وابتسم ساخرًا، ثم أخرج النقود المعدنية من جيبه، أمعن النظر في الصور المنقوشة على وجهيها، ثم أطاح بها لترتفع في الهواء، التقطها بأصابعه قبل أن تسقط، ومضى في طريقه حتى ألقته قدماه على محطة القطار، جلس على المقعد الرخامي، وأخذ في عدّ العملات المعدنية، لا تملك له الحق في شراء تذكرة ليقله القطار بعيدًا عن هنا، فأعاد عدها من جديد، عدها عشرات المرات، ثم أطاح بها في الهواء، لتلتقطها أصابعه قبل السقوط..

كانت فتاة شقراء تحاول التحدث إلى عامل النظافة، هو لا يفهم لغتها، وهي لا تفهم لغته، أعرض عنها وعاد إلى عمله، تحولت إلى صبي صغير يطوف بزجاجات المياه الغازية بين المنتظرين، فسارع بفتح زجاجة وناولها إياها، فحاولت أن تفهمه أن هذا ليس ما تريد، فأخرج لها زجاجة أخرى من نوع آخر، فردها إليه، والتفتت يمينًا ويسارًا تبحث عن شخص آخر.

نهض من مقعده وتقدم نحوها، كانت تقف في ركن لإشعال سيجارة، فألقى عليها تحية المساء بالإنجليزية، فردت التحية وكأنها عثرت على كنز، وقبل أن تسترسل في طلبها، مدّ يده طالبًا قيمة التذكرة التي تريدها، أخرجت حقيبة صغيرة من بين أشيائها، وجذبت منها عشرين جنيهًا، فسحبها من بين أصابعها بهدوء، واتجه صوب نافذة التذاكر، تأكد الموظف من ملامحه قبل أن يتسلم منه النقود، ثم سأله بحزم: (مصري؟) أجابه بلهجة ساخرة: (شايف إيه؟) فمد أصابعه من الفتحة الحديدية الضيقة وأبدله النقود بتذكرة السفر، عاد إليها.. فاستقبلته بكلمات شكر وثناء شديدين، مخرجة من حقيبتها ورقة من فئة العشرة جنيهات، فنظر إليها مرتبكًا، ثم أشار بيده بالرفض، فسألته مندهشة عن عدم قبوله، رغم أنه قدم لها

خدمة أعفتها من الرسوم الزائدة التي تفرضها الحكومة على تعاملات الأجانب، وهم في بلادهم لكل خدمة مقابل، ولولا أنها تنتظر القطار لتلحق بصديقها في أسوان، لقدمت له المقابل بطريقة أخرى، فأشار إليها براحة يده اليمنى، ثم تراجع إلى مقعده، لم تسقط نظراتها عنه حتى حملها القطار، فوقف يودع وجهه المنعكس على زجاج العربات، ثم أمسك بالنقود المعدنية، تحسس النقوش البارزة عليها، أطاح بها لأعلى، التقطتها بأصابعه قبل السقوط، ثم عاد من حيث أتى.

سيجارة حشيش



- إيه ده يا أشرف؟؟

- دي سيجارة حشيش صنف يعجبك.

- حشيش ؟

- أيوة حشيششششش مالك فيه أيه؟

- بتشرب حشيش يا أشرف ؟

- أيوه لازم أشد سيجارة قبل ما نروح الأمسية .

- الله يخرب بيتك هتودينا في داهية.

-أيه يا ابني إزاي بتكتب من غير ما تشرب حشيش

- حشيش يا أشرف؟؟

- خد شد يا راجل، هتلاقي نفسك بتدوس في السحاب

- لالا شكراً،أنا بكتب كويس من غير حشيش

- أنت حر، هتندم يا حشيش ..هأ هأ هأ

كان هذا حواري مع صديقي أشرف الحائز على جوائز الدولة في الشعر، عندما كنا نجلس على مقهى بميدان التحرير، في انتظار موعد الأمسية الشعرية، التي دعانا إليها أحد الأصدقاء بصالونه الأدبي، والغريب في الأمر، أن أشرف كان مستغرباً جداً لأني لا أستخدم تقنية الحشيش الكتابة الروائية، فكان يحدثني عن هذا الحشيش وكأنه يتحدث معي عن معشوقته، وعندما ينطق كلمة حشيش تجده يضغط على كل حرف فيها بأقصى قوة، وكأنه يستلذ لمجرد النطق به، حتى أنه كان يكرر الكلمة بشكل ملفت،(الحشيششششش الحشيششششششششش) كنت أسمع الإشاعات التي يروجها البعض عن قراء القرآن الكريم، بأن هناك الكثير منهم لا يستطيع التلاوة دون شرب الحشيش قبلاً، وكذلك بعض المطربين ،والساسة الكبار ،أمر مضحك حقاً، أو محزن حقاً، فرددت بصوت مسموع (هم يضحك، وهم يبكي) فنهض أشرف من مقعده وكأنه أصيب بهستريا (مضحك محزن معاً، كجلمود صخر حطه الحشيش منعلي.. أنا متأكد إن عنترة ابن شداد كان صاحب دماغ و بيضرب حشيش) جذبته لمقعده في ذهول ،و سط أنظار الجالسين وابتساماتهم الغريبة، وكأنهم على

يقين بأنه شخص متعاطي للحشيش، فصديقي أشرف،كان يدخن الحشيش في مكان عام، وكأنه شيئاً عادياً ومسموحاً به بالنسبة للأديب،حتى أن الشرطة لو مرت جوارنا لن تأبه لفعله،حتى لمجرد السؤال، فهو شيء طبيعي جداً أن يتعاطى المبدع الحشيش.. غادرنا المقهى وهو على يقين أنني إنسان شاذ، فكيف أتمكن من التحليق والإبداع بدون سيجارة الحشيش؟.

مرت السنون

شهر يونيو٢٠٠٧

بمطار (هيثرو) الجو كان بارداً، ومنعشاً في ذات الوقت كزجاجة (كوكاكولا) مثلجة بصيفنا العربي، فدائماً أقول لنفسي أن (الشتاء ببلادنا العربية أكثر إبداعاً)، ولكن الجو الأوربي جعلني أعيد النظر في تلك المقولة،كان بصحبتي زميلي الشاعر(إياد سكاف)، لتغطية مهرجان(ليدبوري) الثقافي الذي يقيمه أدباء المهجر بنفس المدينة، دلفنا إلى الشارع والبخار الثلجي يغطي أجواء مدينة الضباب، وبانت علينا أوربا بشوارعها البيضاء ، وبدأ الزكام يملأ جيوبي الأنفية،كثيراً ما

تؤثر في التغيرات الجوية بسفراتي، لكني استعد لها دائماً بالأدوية المضادة لنزلات البرد..

الفندق كنت احتل مقعداً جوار المدفأة الحجرية، بعد أن تناولت قرص (بنادول فلو)، وكبسولة مضاد حيوي، مع كأس دافئ من عصير الليمون الأخضر، ولا أعلم لَمَ طفت على رأسي رواية(المصيدة) لأجاثا كريستي، فدارت أحداثها أمامي كأني أراها رأى العين، وراودتني رغبة ملحة للكتابة، فأمسكت بقلمي وحلقت على ظهر سحابة عائمة بالفضاء، لكن مع شعوري بالخدر، غلبني النوم و لم استيقظ إلا على صوت زميلي (إياد) لأستريح على سريري بالداخل، قمت وأنا أحمل رأسي حملاً، ومازال ارتكاب جرم الكتابة يشق على لحظاتي، فسالت من فمي أبيات شعر مكتملة، استكان لها (إياد) ولحته يصفق لي بكفيه، بعد أن قضى على النوم ،مستلقياً على سريري..

بالصباح كنا نجلس معاً (ببوفيه) الفندق لتناول وجبة الإفطار، أخرجت الأقراص من جيبي، لأبتلعها مع فنجان الشاي الساخن، فنظر إليّ مبتسماً، فسألته عن سبب ابتسامه، فقال بأن تلك الأقراص كانت سبباً في إبداعي المنفلت ليلة أمس،

فقد سمعني أقرض الشعر، رغم أنني أخبرته بأول تعارفنا أنني لا أكتب الشعر الآن، وقد هجرته منذ زمن طويل،كنت أسمعه وكأنه يتحدث عن إنسان آخر، ولكني استحضرت صورة صديقي أشرف الذي كان يدخن الحشيش لتفتح له أبواب الإبداع مصراعيها، ويكتب شعراً لم يصل إليه أحد من قبله، فطابقت ذهنياً بين الحالة التي يفعلها الحشيش بتأثيره المخدر على متعاطيه، والحالة التي كنت عليها أمس تحت تأثير علاج البرد، والمضاد الحيوي، فأيقنت أنني وقعت في نفس الفخ، عدت لصديقي إياد الذي مازال يتحدث ضاحكاً عن موقف أمس، بتمثيل بسيط لحالتي، مستخدماً جفونه، وشفتيه، ويديه، رافعاً صوته بهمس وهو يقلدني في إلقاء الشعر،وكان قد حفظه عن ظهر قلب، لكني ابتسمت له بهدوء، وأكملت ابتلاعي لأقراص الدواء...

بقي من الزمن ساعة واحدة عن موعد المهرجان، وحان الوقت لأستعد، فارتديت بزتي الرمادية، وأخرجت معطفي المخملي الثقيل، لارتدائه قبل الخروج مباشرة لتفادي صفعات البرد، مع الاحتفاظ بمزيد من المناديل الورقية بجيبي، لإزالة آثار الزكام المستمر، خرج إياد من غرفته، وقد ارتدى بنطالاً من

الجينز، وسترة جلدية بلا أكمام، تحتها قميص أبيض، ويلف رقبته بشملة صوفية صغيرة حمراء، حدق في ملابسي دون أن يعلق، ثم رفع سماعة الهاتف طالباً كأساً من النبيذ الأحمر، نظرت إليه دون أن أعلق أنا الآخر، لكن دفعني فضولي أن أسأله بعدما رأيته يرتشف من النبيذ الذي أحضره النادل بتلذذ، بنفس الطريقة التي كان يستلذ بها أشرف نكهة سيجارة الحشيش، فسألته عن سبب شربه ونحن في طريقنا إلى المهرجان بعد قليل، فأجاب وقد انفرجت أساريره للسؤال، بأن النبيذ يساعده على الشعور بالدفء، ويجعله يحلق وهو يلقي شعره على الحضور وكأنه يهبط عليهم من السماء، وهي عادة اعتادها حتى ببلده العربي ... ثم مد لي يده بالكأس طالباً مني أن أجرب، فارتديت معطفي المخملي وقد رسمت على وجهي قسمات جادة، وأنا أخبره بأنني دخنت منذ قليل سيجارة حشيش كبيرة جداً، ولا أحب أن أغير هذا الصنف أبداً.

أحلام تحت المجهر



دس عينه بفوهة المجهر بعد أن وضع شريحة تحمل عينة للفحص، حرك عدسات المجهر يمينًا فيسارًا لضبط مسار الرؤية، كان يدقق كثيرًا ثم ينهال بقلمه على أوراقه بطريقة أقرب إلى الهستريا، مرت لحظات طويلة قطعت من جسد الزمن وهو على هذا الحال غير آبه لوجودي، كان يصلني شعور التظاهر بالانهماك والتفاني بالعمل لدرجة تتخلل الوعي، أجلت ناظري بأركان المختبر الصدئ ألتقط بعض الصور للأجهزة المتهالكة وبقايا عصارات الأحماض والأصباغ التي لطخت الطاولات والأرضية، المكان دميم وغير مألوف ولا يشجع على العمل، ولا على هذا التظاهر الغبي الذي طالما مدده إليَّ بتحركاته الغريبة التي تستفزني، فضلت التنفس من خلال الفم لتجنب الروائح الفرعونية التي تبثها جدران المكان المريضة بالرطوبة، ساعات مرت دون كلمة واحدة يرطب بها ريقي الجاف، تساءلت: كيف سأقوم بالعمل في تلك الحظيرة؟ وكيف

سأتعامل مع هذا الفأر الضخم؟ أشعر بأن طموحاتي ستكفن وتدفن هنا بمعدة هذا الحيوان اللزج، أعلم جيدًا أن الوظائف الحكومية تحتاج إلى ذوي النفس الطويل وصراعهم مع الصبر والأمنيات التي لا تتعدى الحصول على الترقية للدرجة الأعلى، فأبي كان ذا عقلية فذة امتاز بها بين زملاء الدراسة بكلية الهندسة الميكانيكية، وذلك على حد قوله، وعلى حد ما أطلعنا عليه من شهادات كثيرًا ما أخرجها من حقائبه القديمة وفخر بها أمامنا، طالما جمعنا أنا وإخوتي تحت دفء الأغطية، وحكى لنا عن أحلامه ومشاريع اختراعاته التي تبخرت مع إلحاقه بالتجنيد مدة فاقت السبع سنوات، ثم خوضه حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر بسلاح المهندسين، يحكي فتختلط قصص تفوقه الدراسي بقصص مغامراته الحربية وبطولات زملائه بالجيش. نفس القصص كانت تتكرر في كل مرة يجمعنا فيها، حتى إنني حفظتها عن ظهر قلب. رميت نواظري على زجاج النوافذ الرث الذي يخنق أشعة الشمس فيرتد بها للفضاء، ثم يبعث لي بخيالات متمايلة لشجرة حبيسة بالخارج، مالت معها رأسي نحو السؤال الذي كنت أسأله لنفسي دائمًا: لماذا لا يحكي لنا أبي عن عمله الحالي؟ كان يهمس دائمًا لأمي عن مشاكله

بالعمل بعيدًا عن آذاننا، التي كان يعتقد أنها بعيدًا عن مواعظ أمي لنا، بما يواجهه من مشكلات وتحمله المتاعب، وتضحياته التي يقدمها من أجلنا، وكيف أنه يتحمل العناء من أجل توفير كل ما نتمناه كما تعتقد، مشكلات أبي تلك العظيمة كانت تنحصر بين طموحاته ومغامراته وبين مديره الهائل القرارات، هذا ما علمته بعدما تلقيت بشرى نجاحي بتقدير جيد جدًّا في كلية العلوم، حين عانقني وقال (بنت الوز عوام)..

بعدها أغلق علينا باب غرفتي، وغامر معي بحديث أبوي طويل، حدثني فيه عما كان من طموحاته وأحلامه عندما كان بالجامعة، وعن اصطدامه بالواقع وبأبراج الإدارات الشاهقة التي غرست قبل مجيئه للعمل، كان حديث أبي لي بمثابة هدية نجاحي الثمينة التي يقدمها جزاء ما اقترفت من تفوق مهدد بالتثبيط الإداري والوظيفي، بعد أن انتهى من تقديم هديته سألني عن أمنياتي فأجبت بخجل:

- عالمة في الذرة.

ولم أندهش عندما نظر إلي بابتسام مخضب بدماء السخرية الدفينة، مربِّتًا على كتفي بحنان مفعم بآلام قديمة.. (وفقك الله يا ابنتي).

خرج وجذب الباب خلفه، وكأنه أرادني أن أجلس مع نفسي وأعيد تبلور كلماته داخلي، وقد كان له ما أراد. رغمًا عني دخلت بدوامة التفكير في القادم، وغول الأسئلة يهاجمني بشظاياه، يلقيها نحوي ويهرب، ثم يعود عندما ينتهي مفعول الهجوم السابق، استلقيت على سريري الصغير حتى ذهبت لمملكة النوم...

- يا آنسة.. آنسة.. هل غلبك النوم؟
- هه.. أعتذر.. يبدو أني قد سهرت بالأمس.
- أكيد هو القلق من العمل الجديد.
- آه فعلًا.. يجوز ذلك.
- لا تقلقي.. سوف يعجبك العمل هنا.
- نعم.. أستشعر ذلك فالمكان حقًا يشجِّع على العمل.

نظر إلي بنشوة الانتصار على الفريسة بعينيه التي كادت أن تلتهمني بأنيابها الحمراء المنتشرة على البياض المحدب، قمت ألملم رداء خجلي المتبعثر أمام هذا الإنسان الكثيف، الذي يثير القرف بمعطفه الملطخ بخليط من الأوساخ الكيميائية، ونظارته التي تجمعت بين ثناياها الأتربة المتحمدة، وخصلات شعره الملتفة كخاتم الزفاف.

- عفوًا يا آنسة.. لم أتشرَّف باسمك..

- ينادونني أحلام.

- وأنا حامد.. حامد عمران.

- شَرُفتُ بك.

- وأنا أكثر.

- هل من الممكن أن أعرف ما هي طبيعة عملي هنا؟

- لا تعجلي برزقك.. اليوم أنت ضيفتنا.

- شكرًا لك.. ولكن أريد أن أعرف ما سأقوم به تحديدًا.

- حسنًا.. طبيعة عملك هي أن تقومي بتحضير العينات المعملية التي تأتينا من وزارة الزراعة، والصحة وإعدادها للفحص.

- أفهم من ذلك أنني لن أقوم بالفحص بنفسي؟

- قلت لا تعجلي برزقك.. فعملية الفحص والتشخيص وإخراج التقارير هي مهمتي.

- آه.. فهمت.. أشكرك.

- لا شكر على واجب.

***

كان أبي يجلس على مقعده المفضل بجلبابه الأبيض الفضفاض، وقد نشر أوراق الجريدة أمام رأسه المختبئ إلا من صلعته الفسيحه الملساء، صورة الرئيس تتصدر الصفحة المواجهة مصافحًا أحد الزعماء العرب، لم أتوقف عند المشهد كثيرًا حتى شعر أبي بوجودي، طوى الجريدة دون اهتمام بهندمة الصفحات:

- طمئنيني.. ما الأخبار؟
- الحمد لله.. الأمور تسير على ما يرام.
- هل استلمتِ العمل؟
- نعم.. من أول لحظة.
- عظيم جدًّا.

بعد دعائه لي بالتوفيق كعادته عاد ليحمل جريدته بأخبارها التي ينتظرها كل يوم بشغف، على الرغم أن أحداث اليوم هي أحداث الأمس والغد، أذكر أنني يومًا ما أخطأت وناولت أبي جريدة اليوم السابق، فأخذ يقرأها بنهم دون أن يلحظ أنها نفس الجريدة التي أتم قراءتها بالأمس، وعند خروجي للجامعة فوجئت بوجود جريدة ذلك اليوم الطازجة تنتظر بالصندوق المخصص، ضحكت كثيرًا وعدت بها لأبي الذي قال بلهجة صباحية ساخرة مداريًا ما وقع فيه من خطأ:

- أعلم أنني أقرأ جريدة الأمس يا شقية، لا تظني أن أباك صار عجوزًا ذهب عقله.

بحجرتي الصغيرة كنت أجلس على مكتبي أتأمل كتبي القديمة، أتذكر أيامي معها، وكم كنت أستمتع بقطف صفحاتها حتى النهاية، وقعت عيني على كتاب الفيزياء بألوانه المزركشة الزاهية، اقتلعته من مكانه، وبالمنتصف عند بداية الفصل الثالث (الفيزياء النووية)، كنت قد كتبت أمنيتي فوق العنوان الذي كتب بخط أحمر عريض، ما زالت الأمنية قابعة بالأعلى بخطي الصغير الذي طالما اشتكى منه المدرسون. كنت أقنع نفسي دائمًا بأن الخط السيئ سمة من سمات العباقرة الذين يستحقون عناء القراءة. دثرت الأمنية بالنصف الآخر من الكتاب علّني أعود إليها يومًا ما، مرت الأحداث بمنزلنا ككل يوم، إلا من نداءات أمي الجديدة التي ملأت بها المنزل، والتي ترتفع كلما اقتربَتْ من النوافذ، وكأنها تريد أن تُسمِع الجيران - أستاذة أحلام - حتى إني لم أردَّها فيما تقول، ولم أعلق على هذا اللقب الجديد، ولا على رائحة البخور التي لونت بها الأجواء.

***

جذبت معطفي من فوق المشجب، كان يضيء ببياضه الناصع وسط عتمة المكان الباهت، كأنه جسم غريب سقط بأحشائه فأراد أن يلفظه، صوت "حامد" يقترب بالخارج يمرر تحياته الصباحية التي انتهى بها عند أعتابي، بادلته التحية بصوت خفيض، ثم اتجهت ناحية الثلاجة أخرج منها بعض العينات لأمارس معها عملي الذي أملاه علي بالأمس، بدت عيناه منتفختين ووجهه الشاحب تعلوه خصلات الشعر اللولبية، وبقايا من بلورات المياه ما زالت تعلق بالأهداب، رفع سماعة الهاتف كبداية لممارسة استعراضه المفضوح بطلب القهوة المخصوصة التي من المفترض أن يكون الساعي اعتاد على صنعها وتوليفها لتتناسب مع مذاقه يوميًّا، دفع بالسماعة لترتطم بقاعدة الهاتف، وأخذ يشتم ويسب ويبدي استياءه نحو الساعي الغبي على حد وصفه؛ لتأخره بتقديم القهوة بموعدها اليومي المحدد، ترك أطراف تلك المشاجرة الذاتية، وعاد أدراجه موجهًا بصره المنتفخ نحوي بعد أن تحولت نبرات صوته لنبرات مطرب شهير لا يحضرني اسمه الآن:

- ماذا تفعلين؟

- أقوم بتحضير العينات للفحص.

- أنت دائمًا هكذا متعجلة.

- وهل أخطأتُ في شيء؟

- لا أقصد الخطأ.

- إذن فما هو قصدك؟

- أقصد أنكِ بدأتِ عملك دون تناولك القهوة أو الشاى.

- أنا لست من هواة شرب الشاي والقهوة.

- غريبة؟!

- لا أرى في الأمر غرابة.

- حسنًا.. كم عينة قمتِ بتحضيرها؟

- اثنتين.

- فقط اثنتين؟! أنت بطيئة جدًّا.

- أليس غريبًا أن تتهمني بالعجلة والبطء في آن واحد؟

- لا عليك.. فقط كثّفي جهدك.

مد فمه يرتشف القهوة مصدرًا صوتًا يشبه صوته الغليظ، ومع كل رشفة يصيبني بنظرة من نظراته الثعلبية، شعرت كأني عارية أمامه تمامًا، فكنت ألملم المعطف لأحكم به لف جسدي؛ لأحتمي من خلسات هذا الفأر الجائع. كنت أعمل بأقصى جهدي لأقضي على اتهاماته المغرضة، لكن ثنايا الغيظ تنتشر بداخلي، فيطفو ارتباكي حينًا، وتصرعني ثقتي بنفسي أحيانًا

أخرى، ثم بدأت الخطوة الثالثة أو الثانية على ما أظن من حركاته البهلوانية المحروقة أمام جمهوره الحقير، كان يغرس فيه نظراته الملتهبة، التي تلوث عينات الفحص فتحولها إلى عينات إيجابية مشبعة بالميكروبات والجراثيم التي كلما اكتشفها، حوَّل رأسي إلى إناء يصب فيه ثرثرته عن علمه وخبرته، وسنوات عمله المتواصل بهذا المجال، مر الوقت العصيب بعد أن زحفت العقارب نحو موعد الرحيل، خلعت معطفي الذي انتشرت عليه بعض من أوسمة المكان، أهديته للمشجب كما كان، تحرك صوته وسط فقاعات نظراته المحلقة فوق رأسي:

- أين تسكنين؟

- أسكن بعين شمس.

- جميل جدًّا.. أنت قريبة من مسكني.

- وما وجه الجمال في ذلك؟

- هذا سيسهل علي اصطحابك معي بسيارتي.

- لا.. أشكرك.

- الأمر لن يرهقني صدقيني.

- قلت لك.. أشكرك.

- كما تشائين.. لك الخيار بالطبع.

أجلس بالحافلة بمواجهة امرأة بمنتصف العمر تتأبط طفلًا صغيرًا يلعق قطعة حلوى، كان يبتسم كلما نقلت نظراتي اليائسة إليه، ربما يسخر من حلمي الضائع، أو أنه يبتسم لقدره القادم – لا أعلم – لم أعره اهتمامي، هربت منه ببصري ناحية السائق – سبحان الله – يشبه "حامد" تمامًا، نفس الرأس بشعرها الملفوف.. الوجه الشاحب.. الأنف المعقوف.. حتى عينيه المنتفخة المنعكسة بالمرآة، حولت المسار للطفل المبتسم الذي يستمتع بهدهدة نتوءات الطريق:

– يومًا ما ستكون "حامد" أيها الساحر الصغير.

– منذ ولدت وأنا "حامد" يا طنط.. أبكي وأبكي لأحصل على ما أريد.

– عندما تكبر ستبكي كثيرًا لضياع أحلامك.

– ومن قال إنني يومًا ما سأحلم؟!

– لن تستطيع العيش دون حلم.

– سأركله بقدمي إذا حاول الاقتراب.

– لكن الحلم حياة أيها الساحر.

– الحلم طريق للموت يا طنط.

ثم أسقط قطعة الحلوى من يده، وأخذ يبكي ويصرخ حتى أحنت أمه ظهرها لالتقاطها من الأرض، وبعد أن حررتها من الأتربة العالقة أعادتها إليه وقد أنهى نوبته العارمة، أراد الشقي أن يثبت لي بالتجربة العملية كيف أنه سيصبح "حامد" العصر القادم. ازداد الازدحام وتلاحم كتل اللحم البشري المبلل، صوت "حامد" - أقصد السائق - يرتفع بتعليماته.

- ابتعدوا عن الباب.. من سيهبط بالمحطة القادمة يقترب من المقدمة.

***

كان أبي يجلس أمام التلفاز، يرتدي نظارته السميكة، يتابع بشغفه المعتاد مباراة كرة قدم، تمليلاته ترتفع كلما اقتربت الكرة من المرمى، نصائحه الضائعة للمدير الفني بتبديل خطة اللعب كادت أن تثقب الشاشة، وكانت قدمه تتحرك دون إرادته مع محاولات اللاعبين اليائسة للتصويب، انتهت المباراة بفوز يرضيه:

- لو كنتِ ولدًا يا "أحلام" لتمنيتك لاعبًا لكرة القدم.

- الحمد لله أنني خلقت أنثى يا أبي.

- راتب اللاعب يصل إلى أضعاف أضعاف راتبك، زيادة على ذلك الهدايا والعطايا والشهرة والمجد.

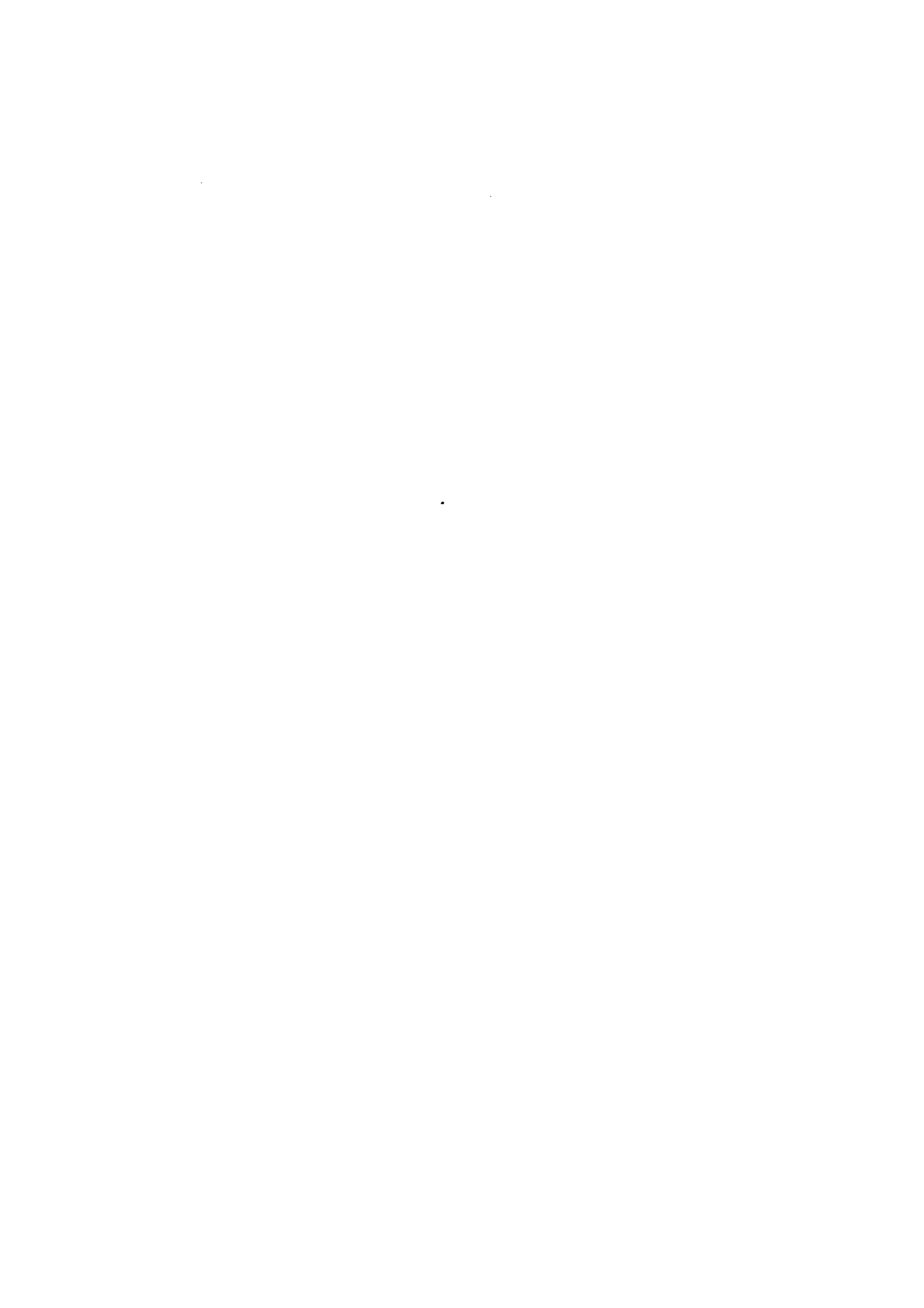
- لو كنتُ ولدًا لكانت أحلامي كما هي الآن يا أبي.

- لكن الحلم مع العلم طريقه طويل يا أحلام.

- وحلمي هو خوض هذا الطريق.

تركت الحديث ودخلت حجرتي، مطبخ أحلامي وأمنياتي، جلست إلى مكتبي، عرش حلمي، كتاب الفيزياء ما زال يتربع على سطحه الصلب، اشتقت لرؤيتها داخله.. هناك بالمنتصف عند الفصل الثالث "الفيزياء النووية" وفوق العنوان العريض استمتعت بقراءة خطي العبقري (عالمة في الذرة)، هبطت من العرش، ألقيت بجسدي على السرير أتصفح السقف الذي رسمت عليه خارطة الطريق، ثم دقات متتابعة على الباب تناسقت مع نداءات أمي:

- أحلام.. استيقظي سيفوتك موعد الامتحان.



خيانة وفاء

- سأعود إليه..

- بالأمر لن تعود..

- لا بد وأن أنتشله من النار..

- هل تضحي بحياتك من أجل جثة؟

- لم يمت بعد..

- كيف علمت ذلك؟

- ما زلت أسمع دقات قلبه.

- كفى هراء.. ما تسمعه هو صوت المدافع من حولك.

- سأعود إليه مهما حدث.

- تذكر.. مخالفة الأوامر أثناء الحرب خيانة عقابها القتل.

- ولّى زمان الخوف.

- انتظر.. قف بالأمر.

- سحقًا لأوامرك تلك.

- سأقتلك إن تحركتَ من مكانك.

- لا يهم.

- سأقتلك..

- قلت لك لا يهم.. يكفيني أن أموت ووجهي تجاهه ورصاصتك في ظهري.

- أحذرك لآخر مرة.

- بل احذر أنت دانات المدافع من حولك.

- طخ طخ طخ....... طااااااااااااااااااخ.

عاد جريحًا وهو يحمل على كتفيه جثتين.

بلوتـــوث



الغرفة وحيدة.. من نوافذها تطل خلايا البحث عن النفس، المآذن شاهقة منيرة، وأجواء تتلفع ببخار صيفي بلون الـثلج، مصباح صغير يذوب بقلب الشارع، الحيرة تحدب جسدها على الجدران، والحلم عتيق، قرار يتمادى بالوهم.. ما بقي من زمن اليوم لا يكفي لميلاد النص، علقت أصابعي بين القلـم وبـين الأوراق، وبات النوم وشيكًا، حتمًا سيأتي النوم..

أشعر بريقي قد جف، (القلة) تفتح فمها لسماء الكـون، مسحت فمي وحمدت الله.. الله ما أجمل هذا الليل، آااه.. مـا زال الضيق يترسَّب بعظام الرأس...

أشيائي بسيطة.. أتحدث معها، مكتب، سـرير، وخزانـة، وبساط يجمع زهورًا برية بلون البحر.. آتيني بفكرة يا أشيائي، يا كتبًا جمعت هذياني، أين الأفكار؟ الأفكار؟! أوراقي امتلأت بوجوه تتألم، وبرحلة بحث عن لقمة عيش، وبـسحن يجمـع شتات البشر خلف القضبان، ورصاصة تخطئ قلب الظلم، بالله

عليكم أسألكم أين الأفكار؟ غربت بسماتي عن شفتيّ، فتوسلت الساعة أن تمضي، فالليلة ليست ليلة حظ، لكن الساعة لا تخطئ نخر الحائط..

علمت أن النوم قد جاء عندما أيقظني صوت الهاتف، صباح تتجمهر فيه الأصوات ككل صباح.. قلبت الهاتف، ليست ساعة إيقاظي، أو اسمًا جاء يطلب مني طعم النوم..

بلوتوث؟!!

خياران أمامي (قبول أم رفض).. قبول.. فالوقت صباح..

جاري التحميل...

فتحت المذياع كي أعرف أخبار الدنيا، لكن الأخبار هي الأخبار، تعدد الموتى، والقاتل واحد.. أنهيت حمامي، دخلت المطبخ أعد الإفطار، طعام مثل الأخبار، جبن، بيض، زيتون، ورغيف الخبز، الشاي.. أين الشاي؟ فرأسي تؤلمني منذ الأمس.. ارتديت القميص والبنطال، وضعت الفنجان أمامي، مع آخر رشفة، حملت حقيبتي بعد أن اقترحت على نفسي أن أذهب للعمل مترجلًا هذا اليوم، فما زال هناك متسعٌ من الوقت، سحبت الهاتف من تحت غطائي..

البلوتوث!

ضغطت زر التشغيل.. ما هذا؟!

توقفت كلماتي اللاهية بخيالاتي، انسحبت جحافل الألم من رأسي، وانهمر سيل البسمات على شفتيّ اليابستين..

انتهى العرض.. أعدتُ التشغيل..

بوسط الحلقة المعممة، الرجل الأسمر بالجلباب عاد يغني، فمه يتسع لعبور قطار أو نمر، إذا مطه لأعلى كشف عن سِنة وحيدة، وجاء بالنهاوند، وإذا انخفض به لأسفل كشف عن سِنة ونصف، وأتحفنا بالصَبا، عيناه تدوران مع الأداء، (وحشتني.. عدد نجوووم السماااا)، فتوزيع موسيقاه قد فاق الحد، من صينية شاي تدعدم أصابعه بالإيقاع، ومن شفتيه يضخ موسيقى الساكس، يعلو بالطبقات ويهبط، الكل يصفق، اثنان انشغلا بالتصوير، وآخر يلف التبغ، إبريق الشاي يصب، الشيشة تزخر بالجمر، والجلسة تعلو بالدخان.. وما زال يغني.. والكل يصفق.. قد انتهى العرض.

صمتُّ قليلًا.. انطلقت بقهقهة ملأت جـوف الـشارع، أمسكت بقلمي كي أكتب هذا النص.



ممكن نتعرف؟



فريسة له

غرس نابه خلف رأسي، فتوغل عطره بكل حواسي، أصابني بالخدر، صرت أرى رقصاته صلاة في محراب مسجد، أسمع ضحكاته الملطخة بالتبغ، فأنتشي لعذوبة موسيقاها الخرساء، أنامله المزينة بالفضة، وقطع الياقوت الحمراء، تبث أشباه الخيالات ببقايا عقلي الصحو، فعم السواد بين أحضاننا، لم نعد نرى سوى حلته الشتوية الأنيقة، التي تنفرد وحدها بالعناق..

٢- ممكن نتعرف؟

رافقني بكل طريق، كان يحملني بكلماته الهلامية، برأفة هي كالكهرمان، لكنها مظلمة كالقمر، دخل معي خيام العشائر، عرَّفته بأصدقائي، رحبوا به، ورحب بهم، أكملنا المسير، الطريق طويل، والخيام كثر، بعد أن شارفت أعناق المدينة بالظهور، تركني وغاب وسط كتل البشر...

عند العودة حملت نفسي، وسرت وحيدًا، لكني فوجئت بأنه قد سبقني إلى تلك الخيام العامرة، لا من أجل أن يتقرب من أصدقائي الصغار، بل زحف حتى اقترب من مجلس شيوخ القبائل، وهو يمط ثغره بفحيحه العطر في أذن زعيمهم، هامسًا: اسمي (نزيه) ممكن نتعرف؟

لن أموت اليوم

سأعيش رغم أنفك...

لن أموت اليوم.

يقولون إن عبد الناصر مات مسمومًا.

ويقولون إن ياسر عرفات مات مسمومًا.

ششششششش ولا كلمة...

أكتوبر ١٩٨٠

انقطع الإرسال... أطلقوا الرصاص على السادات..

هل مات؟

لا أحد يعرف ما الذي يجري، كل شيء حدث بسرعة...

قلبي يدق...

عمري ثلاث سنوات..

اليوم عيد النصر، كيف يغتال الرئيس؟!

لا أحد يعرف شيئًا...

افتحوا المذياع...

الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يرتل القرآن..

.

.

السادات مات... تأكّد الخبر..

بالشارع..

الحركة غير عادية، الناس كلها تركض للعودة إلى منازلها،
لا بد وأن شيئًا ما سيحدث..

ستقوم القيامة مثلًا؟

ربما...

عندما يموت الرئيس تقوم القيامة..

حظر التجوال...

الزحام يزداد.. رجال الشرطة ينتشرون في كل مكان، انقطعت المواصلات، واختفت سيارات الأجرة من الشارع تمامًا... كيف سنعود إلى منازلنا؟

قلبي يدق..

حملني أبي وضمني إلى صدره، وأخذ يربت على ظهري، وهو يشير في محاولة يائسة لسيارة هاربة..

.

.

أهم الأنباء..

إبريل عام ١٩٨٦

الطائرات الأمريكية تقصف مدينة طرابلس..

القذافي صنع أسلحة من البلاستيك كي لا يرصدها الأمريكان.

القذافي بطل..

... لم يمت بعد..

نظرت لبائع الخضروات، وقاطعت حديثه مع الزبائن:

- كيلو بطاطس لو سمحت..

- القذافي يعيش في قصر تحت الأرض..

- لو سمحت كيلو بطاطس..

- القذافي بطل لم يمت بعد.. لقد فشل الأمريكان.

- كيلو بطاطس يا (عم)..

التفت نحوي غاضبًا، ثم سبني بأبي وأمي وهو يلطمني على وجهي..

سأكون بطلًا..

وسأعيش رغم أنفك..

لن أموت اليوم..

.

.

يونيو ١٩٩٥

من أديس أبابا

نجاة الرئيس من محاولة اغتيال..

(أنا وابن عمي على الغريب)..

الأصابع تشير للسودان..

الرئيس بخير.. الحمد لله..

الجالية السودانية تتجه لقصر الرئاسة للاعتذار..

الآلاف من المصريين يحتشدون في الشوارع لمناصرة الرئيس..

- لو كان الرئيس مات؟

- لا تقل ذلك.. فالرئيس نجا بالفعل..

- لم أقصد شيئًا لكن...

- لا تنطق بكلمة واحدة غير أن تهتف بحياة الرئيس...

عاش الرئيس.. عاش الرئيس..

بالروح بالدم..

منك يا أبي

أخيرًا انتهت الدراسة هذا العام..

إذن لا بد وأن أُلحق نفسي بأي عمل من الأعمال المنتشرة بمدينتي (دمياط)، سواء بورشة نجارة لصنع الأثاث، أو محل لبيع الحلويات، أو (كازينو) سياحي بجزيرة رأس البر.. لكن المسلسل الأجنبي (Dynasty) الذي يعرض في تمام الثالثة ظهرًا من كل يوم كان مغريًا جدًّا، لدرجة جعلتني أعد الدقائق والساعات حتى تدق ساعة الحائط باليوم التالي معلنة موعد الحلقة الجديدة، فغيَّبتني الأحداث المذهلة عن التفكير في البحث عن عمل، متخطيًا بذلك حدود العادات المتعارف عليها بمدينتي، توقفت حياتي نهائيًّا، وصلبت على عقارب الساعة، فكنت أنام طوال يومي وأصحو عندما يأتي الموعد المنتظر، كنت أرى في نظرات أبي براثن الانتقاد، وألمح على شفتيه كلمات تريد أن تنطلق، إلا أن صبره آثر التفاوض معي، فسألني

عن سبب مكوثي بالبيت، وعدم بحثي عن عمل كما يفعل أقراني، فكنت أجيبه كلما ربت على أذنيّ بالسؤال نفسه: (بكره إن شاء الله يا بابا)، وينتهي اليوم ويأتي اليوم التالي، والحال كما هو لا يتغير، فعاد للتفاوض معي باقتراحه العمل مع عمال الطلاء بمترلنا، حيث تصادف وجودهم في ذات الوقت لتجديد طلاء المترل، فأبديت موافقتي على مضض، وبشروق الشمس صدق عليَّ المثل القائل (كلام الليل مدهون بزبدة)..

الثانية والنصف بعد الظهر موعد عودة أبي من العمل، سمعت صوته بالطابق السفلي وهو يلقي على عمال الطلاء السلام، ثم سألهم عني، لحظتها تذكرت كلام الليل، فبدأت أهيئ نفسي لاختراع حجة جديدة أعلل بها نقضي لعهدي له، لكنه عندما صعد أبدى هدوءاً تامًّا، ولم يسألني عن السبب الذي منعني من مشاركة عمال الطلاء العمل، فحفزني هدوؤه غير المتوقع على متابعة الحلقة الجديدة من المسلسل الأجنبي (Dynasty) بطمأنينة، جعلتني أتناقش معه ببعض أحداث الحلقة التي شاركني مشاهدتها، فكان يجيب على

استفساراتي بأريحية منسابة، بثت داخلي إحساسًا بالرضا عما أفعله..

عندما عاد ليلًا نظر إليَّ وهو يبتسم، وبعد سؤاله عن أخباري وأحوالي، أخبرني بأنه وجد لي عملًا مناسبًا، ذهلت عندما علمت أن هذا العمل المناسب سيكون عند (الأسطى شلبي) الإسكافي، حاولت إقناعه بأن يتخلى عن تلك الفكرة، وفي الصباح سأذهب للعمل بورشة نجارة، لكنه أصر وبشدة، فلا فرق بين العمل عند (الأسطى شلبي)، وورشة النجارة (كله شغل.. نجار.. جزمجي.. حَمّار..) كله شغل..

السابعة صباحًا كان جرس الباب يدق بشكل همجي، هرعت نحو سماعة (التيكتيفون)، فاصطدمت بصوت غريب، حاولت أن أميز كينونته وهو يعرفني بنفسه: (أنا دُكمه صبي الأسطى شلبي)، أخبرني (دُكمه) بأن (الأسطى شلبي)، أكد عليه ألا يعود من غيري، ولا أعلم لِمَ استسلمت للأمر سريعًا، لكني شعرت بأنه أصبح واقعًا لا فرار منه، فقررت أن أنصاع يومًا أو يومين حتى تهدأ تلك الفكرة برأس أبي، وأعود للعمل بإحدى ورش النجارة المجاورة، لكن رغم محاولات خالي

المتكررة للإفراج عني، إلا أن أبي كان متمسكًا بموقفه، فقررت مواجهة مصيري.

بورشة (الأسطى شلبي) كنت أعيش أجواء جديدة، رائحة الورنيش وجلود الأحذية تغزو أنفي بشكل غير طبيعي، كأني استنشقها لأول مرة في حياتي، فكانت تمثل مفهومًا جديدًا بنفسي يختلف كل الاختلاف عن المفاهيم التي خلفتها داخلي رائحة مسحوق الخشب بورش النجارة.. حتى (الأسطى شلبي)، بهيئته البدينة وكرشه المتهدل، وشاربه الأسود الكثيف، وشعر رأسه المنكوش، كان يترك داخلي انطباعًا غريبًا...

يجلس خلف الماكينة، ويمسك بالحذاء من فمه، ويبدأ حياكة الجزء المتمزق وهو يغني أغنية عبد الحليم حافظ (يتساءلون من تكون حبيبتي!!!)، وعندما يأتي عند مقطع (حبيبها.. حبيبها أنا) يفتح فمه عن آخره، ثم يلقي بالحذاء على كومة الأحذية أمامه بعد أن يكون قد أتم إصلاحه، ويصرخ في (دُكمه) المسكين (لُمّ ياااالاااا).. يحتسي رشفتين متتاليتين من كوب الشاي أمامه، ويجذب نفسًا من سيجارته، ثم يمسك بحذاء آخر.

أوْكَل إليّ مهمة إحضار الفطور صباحًا، (طبق الفول بالزيت. وأقراص الطعمية الساخنة، وفحل البصل الحار،

وأرغفة الخبز الطازجة) من مطعم (عمر عليوة) تحديدًا، وإذا اختصرت المسافة لمطعم آخر، كشفتني حاسة الشم الخارقة (للأسطى شلبي)، فيلقي بطبق الفول خارج الورشة، ويخصم ثمنه من يوميتي..

أما المهمة الثانية، والصعبة جدًّا فهي تعليم (دُكمه) القراءة والكتابة في أوقات الفراغ، فكنت أعلمه ثلاثة أحرف هجائية باليوم الواحد، ولما وجدت أنني أمارس مهمة النقش على الحجر، كما كان يفعل أجدادنا الفراعنة، خفضت جرعة الأحرف إلى حرف واحد فقط يوميًّا..

طلب مني يومًا أن أساعده في تحقيق حلمه، بأن أعلمه كتابة اسمه كاملًا، فوجئت أن اسمه (حسام ناصر حسين)، أما (دُكمه) فهو اسم الشهرة، فكتبت اسمه الأول بصفحة، واسمه الثاني بصفحة، والثالث بصفحة أخرى، وكلفته بأن يقوم بتكرار كتابة كل اسم حتى تمتلئ الصفحات، اندهشت باليوم التالي، عندما رأيته يكتب اسمه كاملًا بالطباشير على جدران الورشة الأربعة، ولكنه أبدل حرف الحاء بـ(حسام)، إلى حرف الجيم، فحول الاسم إلى (جسام ناصر حسين)، عاقبه

(الأسطى شلبي) بالضرب، ووضع وجهه بالحائط، والوقوف على قدم واحدة لمدة ساعة كاملة؛ لما فعله من تشويه بجدران الورشة، وعاقبني بخصم يومين؛ لأنني فشلت في تعليمه. الكنس والتنظيف، وتلميع الأحذية وتنظيمها، كان من اختصاص (دُكمه)، أما مناولة العدة (للأسطى) أثناء العمل، وتزييت الماكينات، وشراء المواد من الخارج من اختصاصي، كنت أتقاضى يوميتي خمسة وعشرين قرشًا، أما (دُكمه) فكان يتقاضى خمسة عشر قرشًا فقط، فغايته من العمل هي تعلم المهنة، ليستقل بنفسه بعد ذلك بورشة يسترزق منها، أما غايتي فمختلفة تمامًا..

اقترب موعد العام الدراسي الجديد، وأوشكت الإجازة الصيفية على الانتهاء، وبدأ زحام الزبائن لإصلاح حقائب المدارس، والدوران حول نعال الأحذية الجديدة بالخيط السميك، لتأكيد متانتها، الأسطى شلبي يجلس خلف الماكينة يسابق الزمن ولا وقت للغناء الآن، يد (دُكمه) لا تتوقف عن تلميع الأحذية، أما أنا فانقطعت أنفاسي بسبب العدو من محل إلى محل لشراء المواد من خيط، وورنيش، و(باتكس)، قبل نفادها من الورشة فيتعطل العمل..

كنت أقف جوار (الأسطى شلبي)، في انتظار أمر منه بالمساعدة، ففوجئت بـــ(نجاة) زميلتي بالمدرسة تدخل من الباب، بيدها كيس بلاستيك أسود، يبدو أنه يحوي حذاءها الجديد، أتت لتزيد من متانته بالخيط السميك، فقد أصبحت أعرف شكوى الزبائن من شكل حقائبهم البلاستيكية، ارتبكت قليلًا، ثم ابتعدت بعض الشيء عن (الأسطى شلبي)، فابتسمت لي ثم اقتربت مني، سألتني عن أخباري وأحوالي، ثم سألتني عن سبب وجودي هنا، فأخبرتها بأنني أصلح حقيبتي، وأشرت بيدي إلى حقيبة ملقاة تحت قدم الأسطى شلبي، الذي كانت حاسة سمعه لا تقل حدتها عن حاسة شمه الخارقة، فنظر إلي غاضبًا، ثم صرخ في وجهي (السكينة ياااا لاااا)؛ فاندهشت (نجاة)، وهمست خلفي وأنا أتحرك بخفة لإحضار (السكينة) (أنت؟!!)

بمنزلنا كنت أجلس على المقعد بركن الصالة المظلم، كنت أبكي وأنا أستحضر الموقف، وأعمل حساباتي، ماذا لو أخبَرَتْ (نجاة) زملائي عن عملي هذا؟ لم أستطع أن أكتم النشيج، فزاد وزاد.. وزاد حتى ارتفع صوت البكاء، فخرج أبي من غرفته متسائلًا عن سبب بكائي، فلفظت منفجرًا (ماذا أقول لزملائي

بالمدرسة؟) وقصصت عليه الموقف بنبرة باكية، فثار في وجهي، (هل رأتك زميلتك تسرق يا ابن الـ...؟ أنت كنت تعمل، وإياك تعتقد أن الأسطى شلبي كان يريدك، فأنا من توسلت إليه كي تعمل عنده، ووافق بعد عناء)..

هدأت ثورته قليلًا، ثم قال لي بنفس الحدة، (لا تبكِ.. قلت لك لا تبك، وإذا كنت لا تريد الذهاب للعمل، فاجلس في البيت واستعد للدراسة، وبهذا تكون قد وفرت عليّ يوميتك التي كنت أدفعها (للأسطى شلبي) من جيبي الخاص)...

نظارة طبية



جلس هناك حيث تباعدت به المسافات عن المقدمة، فتقترب عليه الرؤية بوضوحها، يحاول الوقوف للحصول على أفضل السيئ من تلاشي الأحرف، فتتعالى عليه الصيحات خلفه بأن يجلس، قامته الطويلة هي التي قادته إلى المؤخرة، تمنى لو أبدله الله قصرالقامة بقوة النظر، فنظارته الطبية باتت عديمة الفائدة، لم تساهم ولو بقدر ضئيل في تبديد الغشاوة من أمامه، و لم تضف عدساتها شكلًا جديدًا لعينيه المتخاصمتين، تقفز عن وجهه.. تتحطم تحت الأقدام كلما تزاحم عليه زملاؤه بأزواج الأصابع (دول كاااام؟)، فسلم أمره لله، واعتمد على حاسة السمع، وهو يستمتع بما تبقى له من النظر بمتابعة طابور من النمل يحبو على الجدار جواره، فيكاد يطير فرحًا لتمكنه من رؤية أصغر المخلوقات، لكن انشغاله بمتابعة تلك الطوابير الصغيرة يجلب له زجرات المدرسين لعدم الانتباه، يقسم بأنه يستمع لكل كلمة تقال، فيسألوه عن آخر كلمات نطقوا بها، يجيبهم بثقة فائقة، تلثم وجوههم الدهشة، يربتوا على كتفه، ويطلبوا منه الجلوس في الأمام، يلبي طلبهم، فتتعالى به

الصيحات بأن يعود للخلف، تذكر طابور النمل هناك، عاد حيث يرغبون.. خلع نظارته الطبية، ألصق رأسه بالجدار.. أجهش بالبكاء.

كنت أظن



(١)

كان يجب ألا أصدقها..

لكني كنت في سن لا يسمح إلا باحتواء أكاذيب الكبار، فما بالك أنت بمن تحترف الكذب أكثر من أي كبير آخر في عالمها؟! ظلت تخدعنا طيلة ستة أعوام كاملة، ملأت جيوبنا الصغيرة بأوهامها، حتى أحكمت على رؤوسنا أغطية الخوف.

هـــه!

كيف كنت أصدقها هذه المعتوهة؟ أقصد.. لا شيء.. لكنها حقًا معتوهة.. (اخرسوا جميعكم، ولا نفس، من سيتكلم سأعرفه، فأنا لي عينان في الخلف).. كانت تقول تلك الكلمات ثم تواصل الكتابة بالطباشير على السبورة السوداء.. تمتلك أربعة أعين؟! واااااو.. هي امرأة خارقة إذن..

(٢)

الصغار لا خوف منهم.. هكذا تعتقد الفتيات..

صغيرًا وقعت في غرفة بنات الجيران، بدأت إحداهن في خلع ملابسها، فعضت أختها على شفتيها ونظرت نحوي، فابتسمت.. (لا تقلقي.. ما زال صغيرًا).. لكن الصغير أخذ يتابع كل شيء..

كل شيء..

مرت الأيام وتلك الأشياء لم تمر، بل ظلت، وظلت، وظلت.. حتى علم لماذا كانت تنظر إليه إحداهن وتضحك وهي تحشو صدرها بأوراق (الكلنكس)!

(٣)

أنا الذكر الوحيد بهذا العالم.. كنت أظن ذلك..

أثناء الاستحمام تعودت أن أنظر لجسدي بانتشاء - أحب نفسي كثيرًا - وبما أنني لم أر تفاصيل غيري أبدًا من قبل، إذن فتلك التفاصيل التي أراها هي لي وحدي، لذلك فأنا الذكر الوحيد بهذا العالم.. كنت أظن ذلك...

بالمدرسة..

سألت زميلي عبد القادر عن سبب ارتدائه جلبابًا، لكنه كان يرد على سؤالي بجفاء (وما دخلك أنت؟) لكن فضولي لم يقتنع أبدًا بتلك الإجابة، ومع تكرار هذا السؤال وتلك الإجابة، قبضت على عنقه بذراعي، طرحته على ظهره، قيدت يديه خلفه، ثم رفعت عنه الجلباب، لكني فوجئت بعد أن نزعت لفافة الشاش المتدلية بين رجليه أنني لست الذكر الوحيد بهذا العالم.



الآن فقط أيقنت!



(١)

كيف علم ذلك؟!

ما زلت أذكر هذا الرجل الذي قابلت آهاته غرفتي بمستشفى (عين شمس التخصصي)، عندما زارني ليلًا وربت على كتفي، قائلًا لي بملء فمه: (لا تخف.. ستعيش)، ثم تركني وانصرف دون أن ينبس بكلمة واحدة.. حزنت كثيرًا عندما فوجئت في الصباح أن سريره قد كساه البياض..

ومرت عشرة أعوام...

لم يكن هذا الرجل ملاكًا بالطبع، ولم يكن مكشوفًا عنه الحجاب، لكنها هالة الموت التي تنثر الحياة من حولنا... وضعت سماعة الهاتف بعد أن بشرني أخي بمولد ابنتي...

الآن فقط أيقنت كيف علم ذلك!!

(٢)

لم أكن أعلم أن تلك الدنيا قاسية إلى هذا الحد، شـعرت لأول مرة أنني أسقط لأعلى، أو أني أسير على رأسي في الاتجاهـات الأربعة، لا أعرف من أنا، أو من سأكون، أتأرجح بين الوجود والعدم، وأسكن الفتات المتناثر على نوافذ الحجرة الغائمة، أرى جثة أبي الممددة على السرير كما أرى نهاية العالم، فتخللـتني أحلام هائجة للمجهول، بعدما شعرت أنني سأعيش في هـذا القبر وحيدة بلا رفيق، لم يكن البكاء غايتي في تلك اللحظة، أو حتى الاتشاح بالسواد، كنت أفكر في أمي التي ماتت وأنا أتربع في أحضانها طفلة لا تعي معنى الموت، قال لي أبي إنها صـعدت في نزهة للسماء وغدًا ستعود، لكني اليوم لم أجد مـن يربـت على كتفي ويقول لي إن أبي صعد هو الآخر لنزهـة للـسماء وسوف يعود، أيقنت الآن فقط أنه كان يخدعني، لأنه لن يعود، كما لن تعود أمي أبدًا...

الآن فقط أيقنت ذلك..

(٣)

(المكان غير مخصص للسباحة)

أمام تلك اللافتة المستطيلة، يزف الخوف مخالبه إلى أعماقي؛ فأتشبث بالأرض من تحتي، أؤنس روحي المرتعدة بصلابتها، وأشق صدري بشهقة أستشعر بها الحياة، فأحمد الله أنني ما زلت هنا، على هذا الجانب الذي يحمل تلك المدن العامرة بالأضواء، وهياكل البشر..

أعتلي السور الخرساني القصير، وأمد ذراعي نحو الظلام المنتفخ بجبال الأمواج، أغمض عيني، وأقف على ساق واحدة، ثم أطوح بجسدي كل أسراب الدوائر المعلقة بين السماء والأرض، أتوقف عن هذا الجنون، وأعبئ ظلام البحر في زجاجات ألقيها على قارعة الضوء اليابسة.

ذات مساء...

قبل أحد السباحين المهرة التحدي.. (المكان غير مخصص للسباحة).. فامتلأ الشاطئ بجماهير المصطافين، واختلط صوت التصفيق بصوت الوحش الرابض بين أكوام المياه، وفي لمح

البصر انتشرت عربات (المثلج، والبطاطا والـذرة)، وتعالـت الأصوات، والصيحات، والصفارات، حتى غاب عن الأنظـار خلف مصدات الأمواج، تاركًا خلفه الظلام...

بعد مرور ثلاث ليالٍ متتالية...

تعالت صرخات المارة حينما فوجئوا بجسدٍ طافٍ على مياه النيل أسفل الكوبري الحديدي العتيق.. الآن فقط أيقنت بأنـه لن يعود..

لعبة الصمت



صامت لا يتحرك ولا ينطق بكلمة واحدة، يدخل عليهـــا، يخرج عنها، ولا يترك لها سوى حديث الباب أمامـــه أو مـــن خلفه، حاولت أن تتحدث إليه، أو تجتذب منه حرفًا واحـــدًا، لكنه أصر أن يكون الصمت لها وحدها من بين أشياء المترل، لا تسمع سوى أنفاسه، أو نتاج تحركاته الضئيلة، كـــأن حكمًـــا بحبس انفرادي كتب عليها، أغلق عليها كل وسائل المخاطبـــة، الهاتف، الجوال، التلفاز، المذياع، الجيران، أشفق الملل بظمئها؛ فجعلها تعتصره لتصنع ما يروق لها من عصائر الصبر، دهـــسها العام بهذا الحال، فحدثه الزمن بفشل خطته (لم يلحق بها الجنون بعد) هكذا كان يضمر داخله، أراد الهروب سريعًا؛ فحـــدثها باب المترل بخروجه، ناداها محرك السيارة برحيله، انقطعت عنها جميع الأصوات ككل يوم، همت بفتح خزانة ملابسها، حملتها بين يديها لتكمل معها حديث الأمس، اســـتمرأت حلاوتـــه

داخلها، أخذت تصفف شعرها الـذهبي، أرادت أن تتوجه بزهرة حمراء، فسقطت الزهرة من يـدها، أحنـت جـسدها لالتقاطها، جذبتها عيناها إلى حقيبته، أشعرتها بعودته المفاجئة، أسرعت بإخفاء صديقتها، سقطت منها، حاولـت أن تلملـم أدوات الزينة من أمامها، تبعثر كل شيء حولها، اقترب محـرك السيارة.. أعلن باب الحصن عن عودته، تقدم بخطواته، ألقـت جسدها عليها، أزاحها، تشبثت بها بكل ما تملكه مـن قـوة، جذب طرفها نحوه، جذبت الطرف الآخر نحوها، فانقـسمت الدمية إلى شطرين.

فاتورة حساب

أسبح بعمق نفسي الحائرة، أبحث عن أشياء تائهة بطلاسم عقلي، أقذف كتلي على مقعدي المفضل بزاوية المكتب، أترك نفسي لنفسي تتداخل معها، تعلو طبقات الحيرة داخلي، فيسترق جلد المقعد حرارتي بقيعانه المنتشرة، يعود يضخها نحوي؛ فيزداد نزيفها تحت جلدي، أنهي مجلسي إلى حجرة نومي، ألامس جسدي بسريري المتلاحم مع تكويني، الصوت يحوم حولي كروح تدور بين أنفاسي، أسحب أنفاسًا أخرى من أرصدة رئتي، أعانق عظامي بلحمي المحفوظ بملح العرق، يلح الصوت بذاكرتي، يفتك بهدوء ليلي، أنظر سلة الهاتف المرصعة بالأصواف، وعيدان البوص المتشابكة، فأقر وجوده.. وأتذكر رغبة زوجتي بإلقائه من النافذة، ومحو أرقامه من عقول كل من يحفظها، تقوقعت بنظراتي بعيدًا عنه، خشيت أن يلمحني أطالع وجهه المستطيل؛ فيعود يحدثني بنفس الصوت المهيب:

- غدًا في العاشرة صباحًا.. ينتظرك النائب العام

سحبت نفسي من بين مخالبه الحادة، خرجت إلى ساحة عمري، أنثر مشاعر قلقي على طاولة الطعام، أخذت في عد مقاعدها، سقط مقعدان من تحت طائلة العد،استبدلت بأنفاسي أنفاسًا أخرى طازجة، وعدت للغة الأرقام، أدور بها بين المقاعد الخانعة،سالت بقاياها على جوانب فمي، فجردت صندوق المحارم من منديله الأخير، جففت به الأرقام السائلة، وما زلت أطوف حولي، أتمركز فوق نواة خلقي، وأسير بأشرطة الأحداث فوق اتجاهاتي الأربعة:

- ماذا يريد مني النائب العام؟!

آآآه منك أيها المزعج... قلتها وأنا أعض على أناملي، وعصائر قلبي تفور بصدري، مسحت الجدار بنظراتي، عقارب الساعة تتوسط الليل تمامًا، تراجعت بخطواتي خلف أشيائي، تركت طاولة الطعام تلهو ومقاعدها الكثيرة، على رؤوس أصابعي دلفت غرفة نومي، فتحت خزانة ملابسي، أتخير بين بزاتي القديمة المنشورة، كانت زوجتي تريحني دائمًا من أوجاع الاختيار، أتنهد... أستوي مع ذاتي، أشعر بالراحة بعد الدعاء

لها - يرحمها الله، اخترت بزتي السوداء، أمسكت بها، بعد أن حررتها من المشجب، ضممتها نحوي، مسحت بكفي على أوبارها الكثيفة، امتزج لونها بوجهي الشاحب، حدقت في المرآة طويلًا، الهاتف ينعكس من خلفي:

- ماذا يريد مني النائب العام؟!

التفت شراييني بخلايا قلبي المنهك، تعلقت بنسيج بزتي السوداء، شردت بعيدًا حيث ارتفعت الأصوات من حولي، الهتافات حملتني على أعناقها، استقرت بي على كرسي المنصب الكبير، علت الأصوات أكثر فأكثر، أبدلت من لوحات مكتبي النحاسية، اللوحة تلو اللوحة، فناجين القهوة اليومية غيرت من لون شعري، تسابقت مع اللوحات، أخيرًا كان الفوز للوحة الإقالة، تصدعت قدماي من تحتي، بحثت عن أقرب مقعد، فمقاعد الطاولة لا تهمد من فوضى الدوران، زحفت أمامي بالخارج، انصاع مقعد لجلوسي، وآخر حمل عني البزة السوداء، لف بها عنقه، فاعترف وجهي بحقيقته المنعكسة على زجاج الطاولة أمامي، حدقت بملامحي القديمة، حاولت بأصابعي نفض الغبار عنها، فزمجر الزجاج، ارتبكت أوصالي، فأزحت وجهي بعيدًا عني.

شيء ما يلمع بجيب البزة العلوي، اقتربت منه، جذبته بقوة.. يااااه.. إنه قلمي الذهبي، الذي خط قراراتي، ورسم توقيعي أسفل مصائر البشر، شهق بعودة روحه، اعتصرته أصابعي، لم أقو على حمله، صار ثقيلًا جدًّا، ألقيته على ملامحي القديمة المطبوعة على زجاج الطاولة، فدارت المقاعد حولي، تصفق، وتصفق، تلفني بحياة الزعيم، فأنظر وجهي الملطخ، وقلمي اللامع، وبزتي السوداء:

- ماذا يريد مني النائب العام؟!

ما زلت أبحث عن شيء غائب عني، بين أشيائي، فوق حلمي، خلف قراراتي، بأعماق خزائني المتخمة، فكان حذائي.. رأيته يتصفح أوراقي الماضية، حملت نفسي إليه، عبرت الصالة، مررت بحجرة نومي، بحجرة ابني الغائب عني، وعند أمنياتي العالقة بباب المنزل توقفت، فتحت صندوق أوراقي القديمة، وانتشلت حذائي من الأتربة، والفئران المريضة، وعدت للطاولة، جلست على مقعد، وضعت حذائي جوار قلمي اللامع، فوق ملامحي الملطخة بأحلامي..

بلون الماضي كنت أرى الشارع المتلألئ بالأضواء، وبريق السيارات، ونجوم الفنادق الساطعة، أجلس خلف نافذة المطعم

الفاخر في انتظار طعام العشاء، وقعت عيني على امرأة تجلس على الرصيف أمامي، تمنيت أن أنفض عني الحراس، والألقاب، وأعين الناس، وأهبط لأجلس معها، سألت نفسي لماذا تجلس هنا؟! هل جاءت تتنسم من هواء النيل؟ أم تنتظر من يأخذها معه ويدفع الثمن؟ لوح لها رجل من الجانب الآخر، فأشارت له بالتقدم، اقترب منها.. اقترب النادل مني بالطعام، توقف أمامها الرجل.. توقف النادل أمامي.. حط الرجل بقدمه على صندوق صغير أمامها.. حط النادل الطعام على طاولتي.. أمسكت بفرشاقما.. أمسكت بالشوكة والسكين.. أخذت تمسح واجهة حذائه.. أما أنا فمسحت أطباق الطعام.. شعرت بالشبع.. وتجاهلت شعورها بالجوع.. بعد أن أنهت عملها، أخرج الرجل لها ورقة مالية من جيبه، وانصرف... أعرضت عنها بوجهي، فأومأ لي من بالطاولة جواري.. بإشارة، وابتسامة.. ثم بفاتورة حسابي...

كيدها الجميل

-١

قلت لها أقسم لك أني أكرهك، فرفعت يدها للسماء تدعو الله في صمت، عندما عدت من العمل كانـت في اسـتقبالي، فاقتربت منها، وطبعت على خدها قبلة دون أن أعي ما أفعله.

***

-٢

سمعنا صراخها داخل غرفة العمليات، فتلقيت التهنئات من الأهل والأصدقاء، خرجت الممرضة تحمل الدمية التي ابتلعتها رغمًا عنها.

ظـــن آخـــر

ارتبك لوجوده الخفي، كادت أصابعه تسقط من راحتيه، مخارج حروفه تختنق، لسانه يترجرج في تجاويف الفم، حبات العرق تعلن عن نفسها على جبهته، تتهافت على عينيه، يجففها بأردان قميصه المنسدلة على أطراف يديه، الكلمات المدببة لاتخطئ طريقها نحوه، تظاهر بامتصاصها داخله، لكن كل كلمة تشق جرحًا لها بجسده النحيل، استقرت الكلمات، كلمة بقلبه، كلمة برأسه، كلمة بين عينيه، كلما أراد الدفاع عن نفسه المهتزة، وُضعت أمامه مرآة صافية، رأى فيها وجوه الناس من حوله، إلا وجهه لا يراه، يزداد قلقه، توتره، انهياره، الدوار يلتف به، ألقى به ليتقابل مع الأرض، الرعشات تنزعه عن نفسه، تعيده بقوة، كصواعق الكهرباء، يرتجف، يتمتم بكلمات ضائعة، تقدم نحوه بخطواته الورقية، انحنى على كوم الخوف المرتعد من أمامه، ليلم بقاياه المتناثرة بهشيم الوهم، لم ينبس كعادته بكلمة واحدة، ترك الكومة خلفه، رحل عن الجدار مع حلول الظلام.

الكاتب

– روائي وصحفي مصري من مواليد عام ١٩٧٧

– صدر له:

لوزات الجليد/ مركز الحضارة العربية/ القاهرة ٢٠٠٦.

رائحة الخشب/ دار شمس/ القاهرة ٢٠٠٨.

أوطان بلون الفراولة/ دار العين/ القاهرة ٢٠٠٩.

الفهــــــرس